"اللبننة".. من هاجس للعرب إلى خطر على إسرائيل!

هل يمكن اعتبار الهزيمة العسكرية الإسرائيلية في لبنان هزيمة كاملة للمشروع الصهيوني على أرضه؟ وهل سيمر هذا الحدث التاريخي بدون انتقام إسرائيلي لاحق؟ وما هو مصير المشروع الإسرائيلي في تقسيم لبنان وتشجيع الصراعات المحلية المسلحة فيه لكي لا يبقى لبنان نموذجاً بديلاً لحال الكيان العنصري الإسرائيلي!

صبحي غندور*

كان يوم ٢٤ أيار / مايو الماضي يوم ذل ومهانة لإسرائيل وجيشها ولعملائها في الشريط الحدودي مع لبنان. وكان هذا اليوم يوم قلق وترقب في الأمم المتحدة وفي واشنطن وفي باريس وفي عدة عواصم أخرى. لكن هذا اليوم كان بدون أي شك، يوم فرح وفخر واعتزاز لدى عموم اللبنانيين والعرب أينما كانوا.

ففي هذا التاريخ انهزم الاحتلال الإسرائيلي في لبنان بعد مقاومة متواصلة بدأت مع احتلال إسرائيل لبيروت عام ١٩٨٢، ثم تصاعدت هذه المقاومة وقويت حتى حررت الأراضي اللبنانية واستعادت ما احتلته إسرائيل منذ آذار / مارس ١٩٧٨.

ولعل قيمة هذا الحدث أو الإنجاز بالنسبة إلى العرب ككل، انه لأول مرة منذ ٢٥ عاما، أي منذ بدء المفاوضات العربية مع إسرائيل، ومنذ بدء الصلح معها، ومنذ بدء الاعتراف بها، تضطر إسرائيل لأول مرة في تاريخ الصراع العربي/الإسرائيلي للانسحاب الكامل من ارض بلد عربي، بدون تفاوض أو اتفاقيات أو ضغوطات دولية... فقط تنسحب بسبب المقاومة لهذا الاحتلال، وما سببته هذه المقاومة على مدار سنوات من خسائر بشرية كبيرة في الجيش الإسرائيلي وضباطه وجنوده وعملائه، حيث فاقت هذه الخسائر حجم مجموع ما خسرته إسرائيل في حروبها المتعددة مع الجيوش العربية.

كان درس المقاومة في لبنان مهما لكل العرب: فبعد ١٠ سنوات تقريبا على مسيرة مؤتمر مدريد (وما أوجدته هذه المسيرة من مراهنات وحيدة على عملية السلام، وعلى المفاوضات مع إسرائيل، وعلى إقامة العلاقات الشاملة قبل انتهاء عملية السلام وقبل استرجاع الحقوق العربية وقبل حل جوهر الصراع ، أي القضية الفلسطينية).. جاء درس المقاومة اللبنانية ليؤكد أن "الحرية تؤخذ ولا تعطى"، وبأن "ما يؤخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة"، وبأن "الحق بغير قوة تدعمه هو حق ضائع".

فالحق اللبناني بتنفيذ القرار رقم ٤٢٥ عمره اكثر من ٢٢ عاما، لكن إسرائيل لم تستجب إلى هذا "الحق اللبناني" المدعوم بالشرعية الدولية إلا حينما رافقت هذا الحق قوة المقاومة للاحتلال، هذه المقاومة التي استندت أيضا إلى قوة نهج العطاء والتضحية والبناء والتنظيم السليم، والى قوة التضامن الوطني اللبناني الشامل معها وحولها على المستويين الشعبي والرسمي. أيضاً، استندت واستفادت هذه المقاومة من تضامن ومساندة ودعم أنصار هذا الحق عربياً وإقليمياً -خاصة من سوريا وإيران- ثم التضامن العربي معها الذي تجلى بصورة واضحة خلال شهر آذار/مارس الماضي، حينما تضافر العرب عموما مع لبنان ومع حقه بالمقاومة المشروعة،

مما اسقط عربياً ودولياً صفة الإرهاب التي كانت إسرائيل وأمريكا تحاولان لصقها على المقاومة اللبنانية وتخويف العرب والعالم من طابعها الإسلامي.

كان شهر آذار/مارس الماضي مهما جدا في تاريخ المقاومة اللبنانية، بل كان هذا الشهر وما حصل فيه من عدوان إسرائيلي كبير على لبنان ومنشآته، محطة زمنية هامة أرادها البعض أن تكون المحطة الأخيرة لأسلوب المقاومة المسلحة لكي ينتقل بعدها لبنان إلى خيار "القطار التفاوضي" الذي تقوده واشنطن، وتحدد إسرائيل مساره ومحطاته، وليتساوى لبنان مع الأطراف العربية الأخرى التي اختارت هذا القطار منذ مؤتمر مدريد، دون أي بديل آخر لها أو لعملية التفاوض.

لقد خرجت أصوات وكتابات عديدة بعد عدوان آذار/مارس الماضي على لبنان تطالب (بتسريح المقاومة اللبنانية وبعدم جدواها وبأنها تكلف تضحيات كثيرة للبنان وشعبه، بينما الآخرون في مسار آخر!) وترافقت هذه الحملة آنذاك مع تصريحات أمريكية (وفرنسية) وإسرائيلية تصف المقاومة بالإرهاب، وتحاول زج التناقض بينها وبين المنطقة العربية وحكوماتها وشعوبها من خلال وصف المقاومة أنها (حالة إرهابية إيرانية). لكن كان الرد العربي آنذاك واضحاً ومهماً ومن مستويات رسمية عالية جاءت إلى لبنان تؤكد دعمه وحقه بالمقاومة (بل بعضها اجتمع مع مسؤولين بالمقاومة لأول مرة)، وأيضاً، من مستويات شعبية عربية مختلفة وصلت إلى طلاب الجامعات الفلسطينية الذين عبروا عن مشاعر كل العرب حينما احسنوا "استضافة" رئيس الوزراء الفرنسي الذي انتقد المقاومة اللبنانية وبرر لإسرائيل عدوانها.

لقد كانت قيمة هذا الحدث التاريخي الأخير في لبنان، أن إسرائيل تزعم التزامها بشعار (الأرض مقابل السلام) وهو اللافتة التي افرزها مؤتمر مدريد، بينما التطبيق العملي لهذا الشعار كان حصول إسرائيل على كل نتائج السلام دون التخلي عن الأرض!.

أما في الحالة اللبنانية.. فلقد جرى الانسحاب الإسرائيلي من كل الأرض اللبنانية مقابل لا شيء سوى "سلامة الجيش الإسرائيلي". حصل الانسحاب بدون توقيع اتفاقيات وبدون مفاوضات وبدون شروط للتطبيع أو رفع العلم الإسرائيلي في بيروت!!.

لقد ارتفع العلم الإسرائيلي في بيروت ولبنان فقط خلال فترات الاحتلال، ثم سقط هذا العلم وداسته أقدام اللبنانيين حتى آخر المواقع المحتلة منذ عام ١٩٧٨.

كان شرفاً عظيماً للبنان ولمقاومته الوطنية المؤمنة أن يحصل هذا الانسحاب الإسرائيلي بدون اتفاق أو مفاوضات تحفظ ماء وجه المحتل حينما ينسحب، كما حدث على جبهات عربية أخرى.

إنها الهزيمة الكاملة التي لم ترد إسرائيل إطلاقا أن تحدث بالشكل الذي حدثت فيه. فإسرائيل راهنت على أن انسحابها المفاجئ والسريع سيكون حالة مشابهة لما حدث بعد انسحابها من الجبل اللبناني عام ١٩٨٣، حيث

استتبع الانسحاب معارك عسكرية واسعة بين الأطراف اللبنانية المسلحة هناك، وبطابع طائفي دفع لبنان ثمناً غالياً له.

إسرائيل راهنت على جعل الانسحاب المفاجئ ورقة ضغط على لبنان وسوريا والمقاومة، وعلى أن انسحابها سيجعل عناصر المقاومة اللبنانية تصطدم ولأيام طويلة مع عملاء إسرائيل اللبنانيين في الشريط الحدودي، ثم على صراعات مسلحة بين الأطراف المحلية المواجهة لعملاء إسرائيل.

لكن كل هذه المراهنات سقطت رغم حجم العدد والعتاد الذي تركته إسرائيل مع عملائها. فإذا بأهالي قرى الشريط الحدودي الذين اضطروا لمغادرته بسبب الاحتلال، يعودون إلى قراهم مسالمين ومدعومين بتصرف سليم جدا من عناصر المقاومة، وأذ بجيش العملاء ينهار ويستسلم، ويتساقط جدار الشريط الحدودي كألواح كرتونية الواحد بعد الآخر.

ولقد أضاف هذا الأداء السليم للمقاومة في التعامل مع لحظة الانسحاب الإسرائيلي السريع والمفاجئ إلى ما حققته المقاومة من رصيد هام جدا على مدار السنوات الأخيرة، حيث حرصت هذه المقاومة على الاستفادة من سلبيات تجارب أخرى حصلت في لبنان والمنطقة والعالم. فلم تضع أولوية العمل الحزبي أو الطرح العقائدي على سمات حركة التحرر الوطني التي تتطلب تجميعا للآخرين وليس فرزا بينهم أو تناقضا معهم. كذلك حرصت المقاومة اللبنانية على حصر عملياتها في الأرض اللبنانية المحتلة ولم تذهب في عملياتها إلى عواصم العالم ومطاراته المدنية، بل حتى حرصت على قتل الجنود الاسرائيليين والعملاء ولم تستبح قتل المدنيين في الشريط الحدودي رغم تعاونهم مع إسرائيل.

كذلك نجحت هذه المقاومة في أسلوب تعاملها مع تناقضات الساحة اللبنانية وأطرافها المختلفة، ولم تنجر إلى صراع فرعي مع أحد رغم أن بدايات عمل المقاومة كانت حافلة بأخطار ومنزلقات سياسية وأمنية عديدة، لكنها استفادت من هذه التجارب ومنعت تكرارها وألزمت نفسها بأولوية الصراع مع العدو، فرفضت الوقوع في صراعات جانبية مع أطراف محلية أو عربية. وكانت هذه المقاومة تشيد بمن يقف معها عربياً ودولياً، لكنها لا تُخون من لا يدعمها، فتركت مساحة فراغ من العلاقات كانت تملاها لصالح هدفها المقاوم للاحتلال مع مرور الزمن.

ولعل أهم عنصر في أسلوب المقاومة اللبنانية كان في كيفية إدارتها للعمليات العسكرية ضد جيش الاحتلال وعملائه، وأيضا في كيفية علاقة المقاومة مع أهالي المناطق اللبنانية التي تتواجد المقاومة فيها، حيث غابت مظاهر التسلط وحلت محلها علاقات تفاعل اجتماعي وثقافي انبتت الكثير من المتطوعين والمستعدين للشهادة بحياتهم من اجل تحرير الأرض، وليس من اجل حزب أو مصالح فئوية ضيقة.

فكان هدف المقاومة الواضح الجلي: هو التحرير من الاحتلال الإسرائيلي وليس تغيير معادلات داخلية أو عربية.

ولم تقع المقاومة اللبنانية في المطب أو الكمين الإسرائيلي الذي حدث في العام ١٩٧٥ في بدء الحرب اللبنانية، حيث رفع العديد من قيادات المقاومة الفلسطينية آنذاك شعار: "تحرير فلسطين يمر في جونيه"!! كذلك حرصت المقاومة اللبنانية على التأكيد مؤخرا أن الانتصار هو لكل اللبنانيين ولكل المناطق ولكل الطوائف، وبأنها لن تكون مرجعية أمنية بديلة عن الدولة اللبنانية.. حتى عناصر العملاء وأسلحتهم جرى تسليمها للسلطات اللبنانية.

ماذا بعد التحرير؟

هل يمكن اعتبار الهزيمة العسكرية الإسرائيلية في لبنان هزيمة كاملة للمشروع الصهيوني في لبنان؟ وهل سيمر هذا الحدث التاريخي بدون انتقام إسرائيلي لاحق؟ وما هو مصير المشروع الإسرائيلي في تقسيم لبنان وتشجيع الصراعات المحلية المسلحة فيه لكي لا يبقى لبنان نموذجاً بديلاً لحال الكيان العنصري الإسرائيلي؟ وهل ننسى أن الحرب اللبنانية بدأت في العام ١٩٧٥ بعدما قرر مؤتمر القمة العربي في الرباط عام ١٩٧٤ تكليف رئيس لبنان آنذاك (سليمان فرنجية) بإلقاء كلمة العرب في الأمم المتحدة وبإعطاء لبنان نموذجاً للدولة الفلسطينية المطلوبة القائمة على تعدد الطوائف وعلى نظام ديمقراطي؟.. وهل ستقبل إسرائيل أن يكون منطقها مع كل الأطراف العربية الأخرى (الأرض مقابل السلام والتطبيع والعلاقات مع إسرائيل) بينما لبنان لم يقدم أي شي بعد؟!.. حتى التعهد بالسلامة لم تحصل إسرائيل عليه بعد!!

لا شك أن إسرائيل تراهن الآن (بعد سقوط المراهنات السابقة) على أن تتحول الجبهة الحدودية مع لبنان إلى حال مشابه لكل الجبهات العربية الأخرى، أي إلى حدود مضبوطة من قبل الجيوش الرسمية، وممنوع فيها (ومنها) أي عمليات فردية أو جماعية تستهدف ضرب إسرائيل.

لقد شهدت الجبهة المصرية مع إسرائيل، وكذلك الجبهة الأردنية، عمليات محدودة جدا من أفراد عسكريين أطلقت صفة (الجنون) عليهم جميعا، بينما لم تشهد جبهة الجولان أي حادث يذكر أو أي حادث أتذكره!.

ولعل هذا ما يفسر كثافة التصريحات الإسرائيلية والأمريكية التي تطالب الحكومة اللبنانية بالإسراع في إرسال الجيش اللبناني إلى كل مناطق الشريط الحدودي حتى قبل انتشار القوات الدولية.

أي المطلوب إسرائيليا وأمريكيا الآن استنساخ حالة الجبهات العربية الأخرى وتطبيقها على لبنان، وذلك قبل أن يستنسخ المواطنون العرب حالة التجربة اللبنانية لاسترجاع باقي الأراضي العربية المحتلة!!.

أيضا اعتقد أن إسرائيل ستحتفظ بمزارع شبعا لكي يكون هذا الموضوع هو مبرر دعوة لبنان إلى مفاوضات لاحقة حينما يتم الاتفاق على استئناف المفاوضات الإسرائيلية/السورية. فعندها سينتهي التلازم بين المسارين السوري واللبناني وسيتم توقيع اتفاقات تريدها أمريكا وإسرائيل وتحتاج لها أيضا عواصم الدول الكبرى وبعض الأطراف العربية لكي تنتهي عملية السلام ومسارات التسوية إلى بناء وضع جديد في المنطقة

قائم على الاعتراف العربي الشامل بإسرائيل، وعلى إقامة علاقات معها في أوجه مختلفة لا تستثنى دولة عربية، إضافة إلى ترتيب أمور المياه واللاجئين الفلسطينيين، وهما قضيتان معني لبنان بهما حرباً أو سلماً.

وإذا لم يستجب لبنان –وقبله سورية طبعا– لهذا التطور المطلوب إسرائيلياً وأمريكياً، فان أسلوب المعاقبة سيكون بفتح ملفات كثيرة تتعلق بالوجود العسكري السوري في لبنان وفي إثارة أطراف لبنانية ضد أخرى من خلال العودة إلى موضوع "الخوف عند المسيحيين" وإثارة القضايا ذات الطابع الطائفي والمذهبي في ساحة بلد ما زال كل ما فيه يحمل بصمات صراعات ملونة بعدد طوائفه ومذاهبه ومناطقه المتعددة.

لقد نجحت المقاومة اللبنانية في الحرب العسكرية ضد الاحتلال الإسرائيلي لكن مسؤولية ما بعد التحرير لا تتوقف على المقاومة وحدها. أيضا فان مصير سلاح المقاومة بعد التحرر الشامل وأسلوب عملها السياسي في الساحة اللبنانية سيكونان موضع مراقبة ومحاسبة من كل الأطراف اللبنانية الأخرى، وهو أمر متروك لتطورات المستقبل ولا توجد علناً حتى الآن طروحات جاهزة لكيفية معالجته.

حتى في الجوانب الاقتصادية والأمنية، فان إسرائيل قادرة على الضغط والتأثير السلبي في المجتمع اللبناني الذي لم يتخلص بعد من آثار سنوات الحرب الطويلة وسوء هدر الأموال والفساد السياسي والإداري الذي كان سائدا في العهود والحكومات السابقة.

لكن بغض النظر عن كل الاحتمالات وعن ما يمكن أن يحدث مستقبلا، فان الحاضر هو وسام شرف على صدر الأمة العربية وضعته المقاومة اللبنانية بعد فترة طويلة من الذل والهوان والتنظير السياسي والإعلامي بضرورة (الواقعية في التعامل) مع العدو الإسرائيلي والمتغيرات الدولية.

لقد كانت بداية الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ هي نفسها بداية مرحلة عصر الهيمنة الإسرائيلية في المنطقة العربية، وبداية أسلوب التفاوض والصلح والاعتراف بين العرب وإسرائيل، فعسى أن تكون نهاية الحرب اللبنانية الآن وانتصار المقاومة على الاحتلال، هي مدخلا لمرحلة عربية جديدة تأخذ بعين الاعتبار دور القوى الشعبية في كافة جوانب الحياة العربية، ومن ضمنها حقوق الأوطان، وكيفية حفظ كرامة الحكومات والشعوب أيضا.

"**اللبننة**"، كانت حالة تقسيمية وتدميرية في بدء الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥، يخافها العرب ويدفع ثمنها اللبنانيون أرواحا وممتلكات ويستفيد منها العدو الإسرائيلي في توسيع هيمنته وفرض شروطه على كل العرب..

"**اللبننة**" هي اليوم –مع انتصار المقاومة وانتهاء الحرب اللبنانية– خطر على إسرائيل التي تخشى آثار هذه "اللبننة" الجديدة على المناطق العربية المحتلة في أماكن أخرى وعلى نهج التطبيع مع إسرائيل بشكل عام.

فأي "لبننة" سيحرص عليها لبنان والعرب في المرحلة القادمة؟*(مدير "مركز الحوار العربي" في واشنطن)

E-mail: alhewar@alhewar.com
http://www.alhewar.com